مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنيين 16و17م

د. حنيفي هلايلي
جامعة الجيلالي يابس. سيدي بلعباس

أدى استقرار الأتراك - العثمانيين في مدينة الجزائر إلى تحويل نشاطات الجهاد البحري في البحر الأبيض المتوسط إلى مؤسسة. وقد تحكمت طائفة الرياس، ابتداء من تواجدها في دار السلطان بطريقة شديدة الانتظام من حيث التوظيف والتنظيم والتمويل والعمليات الحربية، وقد أصبحت الطريقة الجزائرية بدورها مثالا يحتذى به بالنسبة لرجال الطائفة في تونس وطرابلس وكذلك جمهورية أبي رقراق[1].

ولم يكن اهتمام الجزائر بالجيش البري أكثر من اهتمامها بالأسطول الذي كان يشكل محورا أساسيا في قوتها العسكرية حيث جعل منها قوة بحرية من الطراز الأول. وذلك بهدف هجمات الأساطيل الأوروبية المتكررة، من جهة، وخدمة الإستراتيجية العثمانية في البحر الأبيض المتوسط من جهة أخرى.

وتعود قوة البحرية الجزائرية في العهد العثماني إلى عدة أسباب منها :

أ- الموقع الجغرافي الممتاز للجزائر وطبيعة سواحلها المفتوحة على أوروبا والمتحكمة في الحوض الغربي للبحر المتوسط، على امتداد 1200 كلم. وهو الأمر الذي جعلها طيلة الفترة العثمانية محط أنظار وصراع بين دول ضفتي شمال وجنوب البحر الأبيض المتوسط، حتى أطلق على مدينة الجزائر اسم "المحروسة والمنصورة ودار الجهاد"[2].

ب- الظروف الدولية، المتمثلة في التنافس بين الدول الأوروبية وما تمخض عن ذلك من صراع وتوترات، مثل العداوة بين **فرانسوا الأول**، ملك فرنسا، والإمبراطور **شارل الخامس** (1516- 1556م) عاهل إسبانيا وجرمانيا، وكذلك التنافس الهولندي –الفرنسي- الإنجليزي، فيما بعد على اكتساب المستعمرات والسيطرة على التجارة العالمية أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين.

ج- تجنيد الأوروبيين المعروفين بالأعلاج (Renégats) في البحرية الجزائرية وهذا ما سمح لكثير منهم بتبوء منزلة مرموقة ومكانة عالية بعد اعتناقهم الإسلام وارتباطهم بالجزائر، رغم أصولهم المختلفة (إغريق، أسبان، مايورقيون، نابوليتانيون، كرسيكيون، سردانيون، فرنسيون، إنكليز، هولنديون). وقد ذكر **هايدو** أن الأعلاج كانوا يشكلون حوالي ثلثي الشخصيات القيادية في الأسطول الجزائري. فضمن ستة وثلاثين رايس يقودون السفن بأكثر من خمسة عشر مجدافا، كان اثنان وعشرون منهم من الأعلاج[3].

د- الإيمان بحق الدفاع عن دار الإسلام بعد انهيار الأندلس وحلول الإسبان بالسواحل، وقد كان في طليعة من تطوع لركوب البحر لمواجهة سفن النصارى، أهالي المدن الساحلية وعلى رأسهم جماعة الأندلسيين، ومن التحق بهم من الأعلاج الذين اعتنقوا الإسلام، وكانوا قبل ذلك يعانون الجور في بلدانهم، جراء النظام الإقطاعي والاستبداد الملكي السائد آنذاك بالبلاد الأوروبية.

وتنوه المصادر التاريخية بالدور التاريخي الذي لعبه المهاجرون الأندلسيون في المرحلة الأولى من تأسيس أيالة الجزائر (1516–1541م)، حيث ساهموا في الدفاع عن مدينتها ضد الغارات الإسبانية المتكررة. وقد اشتهر الأندلسيون في أعمال القرصنة والنخاسة ومبادلة الأسرى والمشاركة الفعالة في تمويل مشاريع الجهاد البحري[4]. كما عمل الموريسكيون على تنشيط حركة الجهاد البحري والهجوم المتواصل على السواحل الإسبانية بواسطة الأسطول الجزائري، وبفضل معرفتهم الجيدة للغة الإسبانية وللأماكن الجغرافية والطرق البحرية. وترجع المساهمة الحقيقية لعناصر الجالية الأندلسية في ميدان الجهاد البحري إلى مجالات تجهيز السفن بالمعدات[5].

هـ- استخدام البحارة الجزائريين الأساليب الحربية الملائمة مثل الالتحاق الغارات المفاجئة واستعمال بنادق البارود السريعة الطلقات والمدافع الخفيفة في هجوماتهم، وكذلك امتلاكهم السفن

المتطورة القادرة على الوصول إلى أعالي البحار، وهي سفن شراعية حربية، ومنها الكرفات والشالوب، والقليوطة، والفرقاطة، والشباك، والبلاكر، والبريك.

و- مهارة البحارة الجزائريين وكفاءتهم الحربية ومقدرتهم القتالية العالية التي مكنتهم من تحقيق انتصارات حاسمة، ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال، الأخوان بربروسة، عروج وخير الدين، ودرغوث رايس وصالح رايس، وإيدين رايس وآرناؤوط مامي، وعلج علي وعلي بتشين وحسن فينزيانو وميزوموتو، وعلي البوزريعي والرايس حميدو وبكير باشا والرايس عمر، والرايس مصطفى والحاج موسى والحاج مبارك وغيرهم. وبفضل هؤلاء الرياس أضحت البحرية الجزائرية مدرسة رائدة لمثيلتها الإسلامية في العهد العثماني[6].

وتميزت الظروف الدولية التي عرفت فيها البحرية الجزائرية نشاطا ملحوظا بتزايد قوة الدول الأوروبية، وساعد الجهاد البحري الذي تزعمته الجزائر منذ القرن السادس عشر على توطيد صفوف المسلمين بالسواحل، فأصبحوا بمثابة كتلة حضارية واحدة تحت راية الدولة العثمانية. كما سمح هذا الجهاد البحري بمحاصرة وتصفية الجيوب الإسبانية، وبالتالي وضع حدا للتوسع المسيحي بشمال إفريقيا. وقد نجحت الجزائر بفضل دور البحرية في رد العدوان، واكتسبت مكانة خاصة جعلتها بمثابة القلعة الأمامية في

مواجهة المد الصليبي الذي يهدد سواحل المغرب فاستحقت كما قلنا سابقا تسمية "دار الجهاد" و"قلعة الإسلام".

كانت البحرية الجزائرية في العهد العثماني تتغذى عناصرها من ثلاثة مصادر أساسية وهي : المرتزقة المسيحيون وهم الأعلاج، والمسلمون من مناطق الإمبراطورية العثمانية ثم الأقلية وهم الجزائريون من سكان الإيالة. ومعظم أمراء البحر ينحدرون من المصدر الأول، فمن أشهر رياس القرن السادس عشر، **عروج وخير الدين بربروسة، درغوث رايس، وعلج علي**، هؤلاء الرجال هم الذين أنشئوا إيالات الجزائر وتونس وطرابلس الغرب، وأعطوها أشكالها السياسية والعسكرية[7]. وعلينا أن نتساءل عن الأسباب التي دفعت بالمسيحيين إلى اختيار مدينة الجزائر ملاذا للعيش، واعتناق الإسلام، ومن ثم ممارسة الجهاد البحري والانخراط في صفوف البحرية الجزائرية.هل كان هذا بدافع تأثيرات العقيدة الإسلامية ؟ أم لأزمة العقيدة عند هؤلاء ؟ أم لمصلحة ومنفعة ذاتية ؟

والواضح أن الكثير من هؤلاء الأعلاج كانوا فقراء ومحرومون في بلدانهم الارتقاء من القهر والتعسف، مما جعلتهم يستفيدون من مداخيل حركة الجهاد البحري، وأيضا الطمع في الارتفاع إلى أعلى مراتب السلم الاجتماعي، إذا علمنا بأن المؤسسة العسكرية في الجزائر كانت تضمن لهؤلاء تحقيق أحلامهم.

وقد كان هؤلاء يشكلون في مدينة الجزائر مجتمعا خليطا كزوموبوليتي، ولكنهم متعاونين من أجل هدف ومصلحة واحدة، فنجد منهم عناصر تركية الأصل، فهم أكثر رعايا الدولة العثمانية، بالإضافة إلى الكراغلة والأندلسيين وبعض أهالي الجزائر والأعلاج الذين اعتنقوا الإسلام.

وقد تضاربت الإحصائيات حول أعداد الرياس في مدينة الجزائر، ففي تقرير لجاسوس إسباني يؤكد أنه في سنة 1564م كان بالمدينة حوالي ستة آلاف قرصانا، إلا أن الأب **دان** (DAN) فيجزم بوجود ثمانية آلاف سنة 1632م[8] وفي عهد الداي **مصطفى باشا** (1798 – 1805م)، لوحظ تجنيد الأعلاج في البحرية ودخولهم بالمئات[9].

ومن أشهر الرياس بدون شك، **علي بتشين**، وهو من أصل **إيطالي**، اسمه الحقيقي بتشينو (Piccinio). وما بين سنوات 1641 و1641 أصبح زعيما للطائفة بدون منازع، والرجل القوي في مدينة الجزائر، حيث استطاع التغلب على الباشا المرسل من طرف الباب العالي بفضل ثروته الضخمة والمتمثلة في ملكيته لقصرين فاخرين بمدينة الجزائر وعدة آلاف من الرقيق، والجواهر، وعشرات السفن، كما أضحت سلطة الرياس والإنكشارية والكراغلة بيده. وكان له حرسه الخاص وكان مؤلفا من المشاة والخيالة. وخلال الثلاثينيات من القرن السابع عشر كان القساوسة العاملون على فدية الأسري يتعاملون معه، باعتباره الحاكم الحقيقي للمدينة. "ولعل

موته المبكرة في جويلية 1645" تدل على أنه قتل مسموما بأمر من حاكم الجزائر[10].

وقد وصل إلى المراتب العليا في أسطول الجزائر عدد قليل من الجزائريين فالرايس **حميدو**، الذي قاد الأسطول خلال الحروب **النابوليونية** (1798 – 1814م)، كان حالة خاصة من حيث كونه **قبائليا** دون وجود قطرة دم تركية في عروقه. فقد كان ابنا لخياط، وعرف بأنه كان يبحر على متن السفينة كخادم في غرفة الضباط وأخيرا رايس وهذا قبل تسلمه لقيادة الأسطول[11].

ومن المعروف أن شجاعة الرايس **حميدو** وهو يقود المعارك البحرية والمغانم التي يجلبها للخزينة، جعلت الداي **حسن** يكلفه بقيادة سفينة حربية مزودة بـ 12 مدفعا، وتحمل على متنها ستين بحارا. وكان كثرة حساد الريس حميدو في مدينة الجزائر هو ما جعل **أحمد باشا** (1805 – 1808م)، يعمل على نفيه إلى بلاد الشام. ومع مجيء الداي **علي الغسال** (1808 – 1809م)، آمر بإحضاره وتكريمه وتكليفه بإعادة تنظيم الأسطول الجزائري من جديد، حيث شارك في حروب البحرية الجزائرية ضد الاعتداءات **التونسية والمغربية**، كما أصبحت التجارة الأمريكية غنائمه السمينة مما جعل الولايات المتحدة تضطر إلى دفع الإتاوة للجزائر مقابل سلامة سفنها[12].

وكان الإجراء العادي للبحار أن يختاره مالكو السفن التي يستعملونها في معاركهم، ولكن قبل أن يعينه كقبطان كان عليه أن يجتاز بنجاح امتحانا يجريه عليه ديوان الرياس[13].

ومن الضروري بمكان أنه من عليه أن يصبح معرفة بعض القواعد النظرية لفن الملاحة. كمعرفة حركة النجوم، وقراءة البوصلة واتجاهات الرياح وفهم الخرائط الملاحية، أو الاهتداء بالجبال عند الحاجة[14].

ويذكر القنصل الفرنسي **روني لومير** (René Lemaire)، في رسالة وجهها إلى السلطات الفرنسية، بأن مسؤول البحرية الجزائرية طلب منه خرائط بحرية للعالم وأربعة أخرى خاصة بمواقع البحر الأبيض المتوسط، وكل ما يتعلق بالأمور الملاحية في رأس الرجاء الصالح وبحر المانش وسواحل انجلترا[15]. والجدير بالذكر أن البحرية كانت مدرسة قائمة بذاتها إذ اتصف رياسها باليقظة والتأقلم الجماعي مع السفينة، ومعرفتهم الجيدة بأمور البحر والسلاح.

والدليل على أهمية رجال البحر، ما نقله لنا السفير المغربي **التمقروتي** أثناء إقامته بمدينة الجزائر سنة 1584[16]. حيث كلف هذا السفير بمهمة إلى استانبول من طرف السلطان **أحمد المنصور**. وقد لاحظ أثناء زيارته للمدينة، قوة النظام الدفاعي لها، وكثرة المجندين بالإضافة إلى ضخامة الأسطول الحربي بالميناء، إذ يقول : "يتصف رياس الجزائر بالشجاعة واليقظة ومعرفتهم الجيدة بأمور

البحر، إنهم متفوقون كثيرا على رياس البحر في استانبول، وهم بذلك يرهبون الأعداء أثناء المواجهات البحرية، أكثر منرياس القسطنطينية الذين تنقصهم التجربة والشكيمة"[17].

وقد كان لهذه لطائفة كأي مؤسسة بحرية أخرى حينذاك رتب وطريقة للترقية تتدرج إلى رتب داخل السفينة ومسؤوليات في القيادة البحرية العامة. كان هناك طاقم كبير من الموظفين تحت قيادة الرايس على ظهر السفينة. فهناك باش رايس وهو مساعده الأول، وتنحصر مهامه في توزيع المهام على البحارة والسهر على الانضباط داخل السفينة، خوجة وهو كاتب السفينة ويعمل كمحاسب وموثق إذ يسجل مداخيل ومصاريف السفينة في دفتر خاص وبجرد الغنائم، وباش جراح وهو طبيب يتكفل بعلاج المرضى، ورايس الطريق وهو قبطان الغنائم بحيث أن كل سفينة تضم عنصرين من هؤلاء، وتنحصر مهامه في السير الحسن لوصول الغنائم إلى مدينة الجزائر، والإمام المكلف بتطبيق شعائر الإسلام وترتيل القرآن على البحارة، ورئيس الإنارة البحرية التي ينظم الإشارات البحرية عند دخول السفينة الميناء، ورئيس المدفعيين ومساعديه وهم المكلفين بالإشراف على المدافع، والممون الذي يقوم بتوزيع حصص الغذاء ويشرف على حسن تنظيم الذخيرة[18].

أما البحارة فهم العمود الفقري لطاقم السفينة. وينقسم البحارة إلى فوجين، الفوج البحري ويتمركز في مقدمة السفينة،

والفوج الثاني في المؤخرة. ويختلف عدد البحارة من سفينة إلى أخرى، إذ تضم بعض الفرقاطات حولي خمسمائة بحار، في حين عملت الإيالة عند الضرورة تزويد ثكنات الميناء باحتياطي إضافي من البحارة يصل عددهم في حالة الطوارئ إلى ثلاثة آلاف رجل[19].

عرفت الجزائر هجرة أندلسية واسعة وهامة خلال مراحل الهجرات الثلاث الكبرى نحو المنطقة، إلا أن الوثائق المتعلقة بها وبالجالية الأندلسية محدودة، والموجود منها ما يزال معظمه موزعا عبر مختلف أرشيفات دول البحر الأبيض المتوسط، زيادة على وضعية الجالية الأندلسية بالجزائر وطبيعة الحكم العثماني بالأيالة، كلها جعلت الدراسات الموريسكية الأندلسية بالجزائر تتأخر عن زميلاتها بتونس والمغرب الأقصى[20].

وقد شهدت الجزائر خلال المرحلة الأولى من الهجرة الأندلسية التي تمتد من 1212م إلى 1492م، وصول موجات هامة من هؤلاء المهاجرين الذين تضاعف عددهم، وذلك موازاة مع حركة الاسترداد المسيحي (Reconquista)، وسقوط الحاضرات الإسلامية الكبرى بالأندلس كقرطبة 1236م، بلنسية 1283م، وإشبيلية 1284م، إلا أن حظ مدينة الجزائر من هذه الهجرة التي شكل معظم أفرادها رجال علم وثقافة، فقد كان ضعيفا نسبيا بمقارنتها بالأعداد الهامة التي نزلت على بجاية الحفصية وتلمسان الزيانية، وهما المدينتان اللتان

كانتا تعدان من أهم المراكز الحضارية في المنطقة وللعلاقات الزيانية – الأندلسية السابقة من جهة أخرى.

لكن بتأسيس الحكم العثماني بمدينة الجزائر (1519)م، كأول قاعدة عثمانية في الصراع الإسباني – العثماني[21] والنشاط البحري الذي بذله الإخوة بربروسة في الحوض الغربي من البحر المتوسط من حملات بحرية واسعة على السواحل الإسبانية، واستغاثة الموريسكيين ونقلهم، أعطى لمدينة الجزائر سمعة وشهرة في المنطقة واستقطب أنظار ليس فقط حكومات **شارل الخامس** (1519م-1556م) و**فليب الثاني** (1556م-1598م) لتكثيف حملاتهم للحد من التوسع العثماني في المنطقة، لكن كذلك العديد من مهاجري المرحلة الثانية التي تبدأ بسقوط غرناطة (1492م)[22] لاختيار مدينة الجزائر كملجأ ومن الحكم العثماني نفوذا مجددا ومناسبا لآمالهم، ولهذا ربطوا مصيرهم بالأتراك – العثمانيين[23]، ولا نبالغ إذا قلنا أنه كان لهؤلاء المهاجرين دور فعالا في تثبيت الحكم العثماني بالجزائر، وهذا للمساعدات التي قدموها للأتراك للتصدي للحملات الإسبانية من جهة والقضاء على الإمارات المحلية من جهة أخرى.

في المرحلة الثانية من الهجرة الأندلسية والتي تبدأ بسقوط غرناطة (1492م)، قصد المهاجرون الأندلسيون مختلف المناطق الساحلية للمغرب الأوسط، واتخذوا من مدينة الجزائر كملجأ لهم، ومن الحكم العثماني نفوذا مناسبا لآمالهم وطموحاتهم. وقد ربط

الموريسكيون الأندلسيون في هذه المرحلة مصيرهم بالأتراك العثمانيين، وكان لهم دور فعال في تثبيت قواعد الحكم العثماني بالجزائر وتمثلت مساعداتهم للعثمانيين من خلال التصدي للحملات الإسبانية المتكررة من جهة والمساهمة في القضاء على تمردات الإمارة المحلية بالجزائر من جهة أخرى. ومنذ سقوط غرناطة عمل الأسبان على محاولة تصفية الوجود الإسلامي من المنطقة، وملاحظة الموريسكيين خارج شبه الجزيرة الإيبيرية في إطار حركة الاسترداد.

وقد تركت الملكة الإسبانية الكاثوليكية إيزابيلا في وصيتها بعد موتها (1504م) : "... **إنني أرجو الأميرة ابنتي (جين) والأمير زوجها (فليب) وآمرهما بإطاعة وصايا أمنا المقدسة طاعة تامة، وأن يكون حماتها والمدافعون وعنها حسبما يقتضي واجبهما، وألا يكفا من متابعة إفريقيا، ومحاربة الكفار في سبيا الإيمان.** .."[24].

وتعود أصول الجهاد البحري الجزائري إلى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، بسبب الأزمة السياسية والاقتصادية التي عصفت بالمغرب الأوسط، والتي كانت من أهم عواملها هجرة مسلمي الأندلس إلى شمال إفريقيا، واستقرارهم في المراكز الساحلية إلى جانب مساهمتهم في تموين سفن المجاهدين وتشجيعها بدافع الحماية من جهة، وبدافع الانتقام ممن طردهم من موطنهم من جهة أخرى[25].

وقد وضعت إسبانيا لنفسها موضع قدم في إفريقيا، كان عبارة عن نقطة ارتكاز أمامية منعزلة للدفاع عن سواحلها الخاصة، كما شيدت سلسلة من القلاع على طول الساحل لشمال إفريقيا، واستولت على بعض المراكز الساحلية الجزائرية مثل المرسى الكبير (1505م)، وهران (1509م)، ومستغانم (1511م)، وتلمسان (1512م)، وتنس (1509م)، وبجاية (1510م)، والجزائر (1511م)، وعنابة (1512م). وكان الجهاد البحري في شمال إفريقيا، قد لفت أنظار أوروبا المسيحية، ولا سيما مجاهدي الجزائر، الذين وجهوا نشاطهم ضد السفن الأوروبية، وسببوا الكثير من المتاعب للدول الأوربية المواجهة للبحر الأبيض المتوسط، حيث نقلوا معهم الكثير من الأسرى والغنائم، وتكفلوا بعمليات إنقاذ مسلمي الأندلس من محنتهم، مما شغل الكثير من المؤسسات الدينية والسياسية الأوربية آنذاك.

عاصرت مشروعات الدولة العثمانية في الجهة الغربية للمتوسط، ظهور حركة عامة من رجال البحر، تستهدف العمل على حماية الموانئ والسواحل من التحشرات الإسبانية وتأمين وصول المهاجرين الأندلسيين على أكمل وجه، وكان من بين هؤلاء المجاهدين **عروج** وأخيه **خير الدين بربروسة**.

وبعد تأسيس الحكم العثماني بالجزائر (1519م)، كأول قاعدة عثمانية في الصراع الإسباني-العثماني بمنطقة الحوض الغربي

للمتوسط بدأ النشاط البحري الذي بذله الإخوة بربروسة وخلفاؤهم أمثال : صالح رايس وايدين رايس ودرغوت، ومراد رايس، وحسان فيزنيانو، وقليج علي باشا.

إن المغرب العربي والدولة العثمانية كانا يعتبران، في نظر الموريسكيين "أرض الميعاد"[26] والتي بإمكانها تقديم ما يحتاجونه من دعم يومئذ، وعلى الخصوص من سلاح للدفاع عن أنفسهم، وفي هذه الفترة الزمنية بالذات، سجل تزايد اللاجئين نحو المغرب العربي ابتداء من سنة 1570م، كما تمكن الموريسكيون من أن يجدوا لهم موقعا بالجزائر وقد أصبح وصولهم الجماعي مكثفا عندما بدأ النظام العثماني في الاستقرار.

وتمكن **خير الدين (1518-1535م)** من جعل إيالة الجزائر[27] قوة بحرية في المنطقة المتوسطية هزت إسبانيا وأرعدت أوروبا، واستحقت بأن يطلق عليها "بلد الجهاد" وعلى مؤسساتها العسكرية "أكبر مدارس الإسلام البحرية"[28]. كانت معرفة **خير الدين** بالملف الموريسكي جيدة، مما جعله يعتقد في وجوب إنشاء دولة قوية وموحدة بالمغرب الأوسط، والتي انطلاقا منها يكون باستطاعته استرجاع الأندلس مرة أخرى، والعمل على اتخاذ الموريسكيين من سياسة الاحتواء الثقافي والديني الذي مارسته محاكم دواوين التفتيش[29].

ومما يجدر الإشارة إليه، هو أن معظم المؤلفين الغربيين، قد وصفوا **عروج (1512-1518) وخير الدين ودرغوت وقليج علي (1568-1587م)** بالقراصنة أو المغامرين المتوحشين، وكان مدلول القرصان محتقرا جدا وهو الشخص الذي يشغله إلا بالاستيلاء على الغنائم والانقضاض على السفن وتدمير السواحل وفرض العبودية على الأسرى.

إنّ الموريسكيين سواء الذين كانوا مستقرين بغرناطة أو بمناطق أندلسية أخرى، كانوا منذ عهد مبكر متشوقين للهجرة نحو شمال إفريقيا، وازداد هذا الشوق بعد قيام الحكومة الإسبانية بمزيد من الضغط ومحاولة منها إبادة من بقي من الموريسكيين، أما بالنسبة للمقيمين في المناطق الشرقية لإسبانيا، فكانوا يفضلون الشريط الساحلي الجزائري الذي لم يكن يبعد سوى ساعات قليلة من الإبحار.

ومن جهة أخرى كانت الإيالة الجزائرية في نظر الموريسكيين، أكثر الإيالات العثمانية-المغاربية المهيأة عسكريا لتقديم الدعم والمساندة، وهذا نظرا لفعالية تحرك أسطولها البحري في المتوسط الغربي، وكذا لخبرة قوادها وبحارتها أمام الأسطول الإسباني الذي يراقب كل تحرك بحري في اتجاه سواحله.إن القواد العسكريين والسياسيين والدينيين الإسبان كانوا يدركون جيدا مدى الوزن العسكري لإيالة الجزائر العثمانية في ملف

الموريسكيين، فقد سجل عدد كبير من الموفدين والمخبرين الأسبان إلى الجزائر على أنهم "تجار كوريسكيون وكاتالونيون وإيطاليون وأنهم، علاوة على البعد الديني كانوا يقومون بوظائفهم التجارية مع المغرب العربي وهم من خلال رحلاتهم التجارية، كانوا الوسطاء والمخبرين عن الموريسكيين"[30].

وحول المهاجرين الأندلسيين الذين قصدوا مختلف مناطق إيالة الجزائر بعد سقوط غرناطة (1492م) وأنواع أنشطتهم، فيمكننا أن نستقيها من المصادر المعاصرة لهذا الحدث التاريخي الهام، فرغم اختلاف لغة وجنسية كل من **الحسن الوزان**[31] المعروف (بليون الإفريقي-Léon l'africain في كتابه –وصف إفريقيا- **ومرمول كربخال**[32] (Marmol Carvajal) في كتابه –إفريقيا- فقد تعرض كلا المؤلفان إلى تواجد الأندلسيين بالمنطقة وخاصة في كل من برشك، تلمسان، شرشال، والقليعة.

وكان للمهاجرين في شرشال حوالي 5000 مسكن، والذين يكون نواتهم كل من الثغريين (Tagarinos)، والمدجنين (Mudéjares)، والأندلسيين، " **وفي مدينة (القل) أكثر من ثلاثمائة من سكانها من المسلمين الذين هاجروا من قشتالة والأندلس.ومملكة بلنسية...**"[33]، وكذلك مدينة القليعة، ذات الطابع الموريسكي الأصلي، والتي استقر بها في عهد **حسن باشا** 1546-1567، حوالي 300 عائلة من أصل مدجن وثغري، وفدوا عليها من

إقليم قشتالة والأندلس وبلنسية تذكر بعض الدراسات أن مجموعة هامة من الموريسكيين بعد خروجهم من الأندلس، لجؤوا إلى سواحل خليج أرزيو قرب منطقة المقطع وهذا سنة 1492م، واستقبلهم أهالي المنطقة بحفاوة[34].

وتشير المصادر الإسبانية إلى الحملة البحرية التي قام بها كل من **ايدين رايس وصالح رايس (1552-1556)** في سنة 1529م بطلب من **خير الدين بربروسة** وأسفرت هذه الحملة على نقل 600 موريسكي بلنسي، وكان هؤلاء ينتظرون النجدة والخلاص من سفن الرياس العثمانيين عند مصب نهر أوفيلا (Ovila) وتمكنت تلك السفن من العودة بالموريسكيين إلى الجزائر، رغم الاشتباك البحري الذي وقع مع الأسطول الإسباني قرب جزر الباليار[35]، وقد اختار هؤلاء النزول بمدينة الجزائر، والاستقرار بسهول متيجة ونواحي البليدة ودلس، وقد شجعت إيالة الجزائر حركة إنقاذ مسلمي الأندلس، وذلك بإيعازمن البيلرباي **خير الدين** مباشرة.

في نطاق هذه الجهود التي كان يقوم بها البحارة الجزائريون من أتراك وأهالي من أجل مساعدة إخوانهم الأندلسيين، وذكر الكاتب التركي **شلبي** أن **خير الدين** وجه حوالي 36 سفينة إلى السواحل الإسبانية، وذلك خلال سبع مرات، لنقل ما يناهز حوالي 70 ألف موريسكي[36].

وقد أشار كتاب غزوات **عروج وخير الدين** إلى بعض الحملات البحرية التي كان يقوم بها الإخوان بربروسة لإنقاذ الأندلسيين، نذكر منها أن سفن خير الدين بعد أن تمكنت من إنتزاع على مدينة مستغانم من أيدي الزيانيين، توجهت إلى سواحل الأندلس واستطاعت أن تنقل مسلمي الأندلس إلى الجزائر. ونقتبس من كتاب غزوات أيضا رواية أخرى تتعلق بالمساعدة في إطار إنقاذ أندلسي جبال البشارات، الذين ثاروا ضد الحكومة الإسبانية سنة (1502م)، وقد وردت بهذا النص : "... **أنه جهز لهم (خير الدين) سنة وثلاثين جفنا (سفنا) فنزل أهل الجبل من الأندلس (أي الثائرين المحاصرين بالساحل)، فرفعوا نساءهم وأبناءهم ما قدروا عليه من أموالهم وأثاثهم، فأتوا بها إلى الأجفان وسقوها بذلك وركب عدد كبير منهم ورجعوا إلى الجزائر وخلفوا ألفي مقاتل من العسكر يحرسون جماعة المسلمين الباقية بالأندلس خوفا عليهم من عائلة النصارى، فلما وصلت الأجفان إلى الجزائر وخلفوا ما حملوه من الأندلس بها رجعوا إلى ذلك الجبل لحمل بقية المسلمين، فتكرر ذلك منهم سبع مرات وكان من جملة ما حملوه من أهل الأندلس على ما قيل سبعين ألفا، وبقيت عادة أجفان الجزائر أنهم في كل سفرة يسافرونها برسم الغنيمة يأتون إلى سواحل الأندلس برسم نقل جماعة المسلمين**"[37]، **وبسبب هذه الأعمال الجليلة التي قام بها الأسطول البحري الجزائري، دفعت بقايا المسلمين بغرناطة إلى الاستنجاد بالدولة العثمانية من خلال رسالة بعثها أهل الأندلس إلى السلطان**

العثماني سليمان القانوني (1520-1566) عام (1541م)، أثنوا فيها على جهود خير الدين، وأشادوا بمآثره وبطولاته بقولهم : "فقد كان بجوارنا. .. المجاهد في سبيل الله خير الدين وناصر الدين وسيف الله على الكافرين علم بأحوالنا. .. فاستغثنا به، أغاثنا وكان سببا في خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المتمردين ونقلهم إلى أرض الإسلام وتحت إيالة طاعة مولانا السلطان ولعمارة مدينة برشك وشرشال ونواحي تلمسان. .. "[38].

وكان رد إسبانيا عنيفا عندما أسست ميليشيات مسلحة للرد على هجومات الأسطول الجزائري، الذي كان يرتاد على سواحلها لإنقاذ مسلمي الأندلس، وكان من نتائج الحملات البحرية المتكررة للأسطول الجزائري على سواحل الأندلس، أن بادرت إسبانيا بشن حملة كبيرة على مدينة الجزائر في أكتوبر 1541م بقيادة ملكها **شارل الخامس**.

وأثناء حصار مدينة الجزائر من طرف السفن الإسبانية، ظهرت شخصية حسن باشا الذي حث سكان المدينة على الصمود في وجه المحتل، وأشرف بنفسه على عمليات تعزيز المواقع الدفاعية وتحصينها[39]. ولم يتمكن قائد الأسطول الإسباني **أندري دوريا** (André Doria) من اقتحام المدينة، وكانت الخسارة كبيرة في القوات الإسبانية حيث خلفت المعركة فقدان الأسطول الإسباني حوالي 150 سفينة ومقتل 10 آلاف رجل، وتمكن سكان الجزائر من الحصول

على كميات هامة من السلاح الذي تركه جند شارل الخامس، وبذلك استحقت مدينة الجزائر لقب (الجزائر المحروسة)، وبعد مرور الزمن فرضت إيالة الجزائر قوانينها وسيطرتها على المنطقة حتى أصبحت في نهاية القرن السادس عشر أكبر قوة من بين المدن الجديدة في حوض البحر الأبيض المتوسط[40].

ويذهب بعض المؤرخين الغربيين أنه لو لا دخول بلاد المغرب العربي في حظيرة الخلافة العثمانية، لأمكن لإسبانيا تأسيس مملكة على طول الساحل (المغاربي)[41]، وللرد على مثل هذه الادعاءات التاريخية، ، فإنه يمكن القول أنه لو لم تكن الدولة العثمانية منشغلة بالفتوحات في المشرق وصراعها الدائم مع الصفويين، لأمكنها بمساعدة إيالة الجزائر من فتح الأندلس من جديد.

عرفت مدينة الجزائر قاعدة الحكم العثماني، هجرة مكثفة من طرف الموريسكيين الذين وصل عددهم مع مطلع القرن السابع عشر أكثر من 25 ألف موريسكي[42]، وباستقرار الحكم العثماني بالجزائر، تزايد نشاط حركة الجهاد البحري في الحوض المتوسطي، إذ اتخذ الصراع العثماني-الإسباني أبعادا عالمية.

إن المغرب العربي والدولة العثمانية كانا يعتبران، في نظر الموريسكيين "أرض الميعاد"[43] والتي بإمكانها تقديم ما يحتاجونه من دعم يومئذ ، وعلى الخصوص من سلاح للدفاع عن أنفسهم، وفي هذه

الفترة الزمنية بالذات، سجل تزايد اللاجئين نحو المغرب العربي ابتداء من سنة 1570م، كما تمكن الموريسكيون من أن يجدوا لهم موقعا بالجزائر وقد أصبح وصولهم الجماعي مكثفا عندما بدأ النظام العثماني في الاستقرار.

وتمكن **خير الدين** من جعل إيالة الجزائر قوة بحرية في المنطقة المتوسطية هزت إسبانيا وأرعدت أوروبا، واستحقت بأن يطلق عليها "بلد الجهاد" وعلى مؤسساتها العسكرية "أكبر مدارس الإسلام البحرية"[44]. كانت معرفة **خير الدين** بالملف الموريسكي جيدة، مما جعله يعتقد في وجوب إنشاء دولة قوية وموحدة بالمغرب الأوسط، والتي انطلاقا منها يكون باستطاعته استرجاع الأندلس مرة أخرى، والعمل على اتخاذ الموريسكيين من سياسة الاحتواء الثقافي والديني الذي مارسته محاكم دواوين التفتيش[45].

ومن جهة أخرى كانت الإيالة الجزائرية في نظر الموريسكيين، أكثر الإيالات العثمانية-المغاربية المهيأة عسكريا لتقديم الدعم والمساندة، وهذا نظرا لفعالية تحرك أسطولها البحري في المتوسط الغربي، وكذا لخبرة قوادها وبحارتها أمام الأسطول الإسباني الذي كان يراقب كل تحرك بحري في اتجاه سواحله. إن القواد العسكريين والسياسيين والدينيين الإسبان كانوا يعلمون جيدا مدى الوزن العسكري لإيالة الجزائر العثمانية في ملف الموريسكيين، فقد سجل عدد كبير من الموفدين والمخبرين الإسبان

إلى الجزائر على أنهم "تجار كوريسكيون وكاتالونيون وإيطاليون وأنهم، علاوة على البعد الديني كانوا يقومون بوظائفهم التجارية مع المغرب العربي من خلال رحلاتهم التجارية، كانوا الوسطاء والمخبرين عن الموريسكيين"[46].

وقد استمر تدفق تيار الهجرة الأندلسية نحو إيالة الجزائر، وخاصة بعد فشل الثورة الموريسكية (1568-1570م)، مما دفع بحاكم الجزائر آنذاك **قليج علي باشا** إلى التفكير في إمكانية تقديم المدد والذخيرة لمجاهدي غرناطة، حتى أطلق المؤرخون على **قليج علي** "بطل الإسلام"[47].

لقد عبرت إيالة الجزائر عن تعاطفها مع الأندلسيين، فبعثت إليهم بالرجال وكمية من الذخيرة الحربية، وقد اعترف حكام الجزائر وعلى رأسهم قليج علي بأن الأندلس لا يمكن استعادتها بدون أسطول عثماني وقوة برية كبيرة، ولكن مع هذا فإن ثورة الموريسكيين في إسبانيا كانت مفيدة لبيلار باي شمال إفريقيا، لأنها جمدت القوات البحرية الإسبانية بالإضافة إلى تجميدها الجيش الإسباني الذي كان قد بقي في حوض البحر المتوسط، كما أنها أعطت لقليج علي باشا فرصة ذهبية لمحاولة سيطرة الجزائر من جديد على ساحل الشمال الإفريقي كله[48].

ولا يمكن إغفال الدور الهام عند تعرضنا للمرحلة الثانية من الهجرة الأندلسية إلى إيالة الجزائر، دون الحديث عن مبادرة الإخوة

بربروسة وخلفاؤهم –كما سبق ذكره- حيث عملوا جميعا على إغاثة استغاثة هؤلاء الموريسكيين والعمل على استقرارهم بمختلف المناطق الجزائرية وتكشف لنا رسالة **السيد أقيلا** (D. juan Aguilla) إلى حاكم بلنسيه في 23 أبريل 1541م، عند خروج أفواج هامة ومتواصلة من موريسكي بلنسية نحو الجزائر، عقب فشل حملة **شارل الخامس (1516-1556)** على مدينة الجزائر (1541م)[49].

وقد قام درغوت رايس بنقل حوالي 1500 موريسكي من منطقة بلنسية في عام 1569م، وكان من نتائج فشل ثورة البشارات بغرناطة (1570م)، نزوح حوالي 30.000 موريسكي بقيادة **الحبقي** إلى الجزائر، وهذا على إثر إتفاق عقد ما بين الموريسكيين ودون **خوان دي استريا** (D. juan de Austeria)، **بتاريخ** 20 ماي 1570م[50]. فحاكم الجزائر **حسن فنزيانو** (1577-1587م)، وكذا بقية البيلاربايات السابقين، قد قاموا بتسهيل إقامة الموريسكيين، إذ أن حسن هذا، قد جلب ألفي موريسكي من منطقة أليكانت (Alicante)[51].

إن إسبانيا التي تقدر حق التقدير الوزن العسكري للعثمانيين، وخاصة التحركات البحرية للأميرال **قليج علي** في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، ومدى فعالية ذلك تجاه الموريسكيين[52]، وتمكن **مراد رايس** من شن غارة بحرية على سواحل لورقة (Lorca)، غرب قرطاجنة بغرض نقل الموريسكيين[53]. في سنة 1585، وصلت أعداد من أهالي منطقة كاطالونيا إلى

الجزائر. وكانت الجزائر والمدن المجاورة كالبليدة والقليعة وشرشال، قد امتلأت بهؤلاء الوافدين الجدد، وعليه فإن سكان مدينة الجزائر، أصبحوا بالفعل يتشكلون من غالبية أندلسية.

وبالرغم من مشروع الهدنة الذي أقرته إسبانيا مع الدولة العثمانية سنة 1581م، إلا أنه ازدادت شقاوة هؤلاء الموريسكيين، الذين انتزع منهم كل شيء : حق التملك، ودينهم الإسلامي، وفي هذا النطاق، استغاث هؤلاء من جديد بالجزائر والدولة العثمانية طالبين منهما، مدهم بالأسلحة للدفاع عن أنفسهم ضد سياسة الدمج والاحتواء الديني والحضاري. وعندما صعب عليهم الأمر عبروا إلى التراب الفرنسي، واستخدموا ميناء مرسيليا كمحطة للانتقال والإبحار إلى مدينة الجزائر وكان هذا قبل عمليات النفي الجماعي.

وفي سنة 1584م، وجه السلطان العثماني **مراد الثالث** (1574-1594م) فرمانا إلى حاكم الجزائر **حسن فنزيانو**، حيث يعرض علينا الفرمان بعض سفن الإيالة أثناء قيامها بحملة ضد السواحل الإسبانية، ثم الاستيلاء عليها من قبل سفن تابعة لدوق مرسيليا المعروف باسم دوق **هنري دي قيز** (Duc Henri de Guise) الذي كان يحكم المنطقة على عهد الملك الفرنسي هنري الثالث (1551-1589م)[54].

وقد أرسل الدوق معظم المسلمين الذين وقعوا في الأسر إلى مرسيليا على أساس أسرى حرب، وهناك بالسجن وحسب الذي أورد

الخبر وجدوا اثنان من المسلمين وأربعة من المدجنين، الذين خرجوا من إسبانيا على أساس العبور إلى مدينة الجزائر، كانوا تقدموا إلى مرسيليا، إلا أنه تم القبض عليهم، وعوملوا معاملة أسرى حرب، وهذا بإلقائهم في السجن والسعي لبيعهم لأحد أعداء المسلمين، وهذا هو النص كما ورد في الوثيقة : "... **رسالة تعبر بأنه تم القبض على خمسة مسلمين من طرف الحاكم الكافر الذليل (يقصد به ملك إسبانيا)، وبعد خروجهم، ونظرا لمعرفتهم بأحوال الكافر الذليل، نزلوا بولاية مرسيليا التابعة لملك فرنسا (هنري الثالث)، في الوقت الذي قدمت من الساحل الغربي أو (دار الإسلام)، سفينة تحمل اسم (المسلمين الجدد)، والتي أثناء قصدنا للغزو والجهاد في بلاد إسبانيا، التفت. .. بالسفن التابعة لدوق فرنسا الملعون. .. إن كفار هذه المنطقة أو قلعة (سان لوفيني)، قاموا بالاستيلاء على تلك السفن وتعذيب رياسها كما وضع مع معظم المسلمين، وتم إرسالهم على أساس أنهم أسرى حرب إلى ولاية مرسيليا. .. وأثناء وجودنا بالسجن، وجدنا اثنان من المسلمين وأربعة من المدجنين، الذين خرجوا من أرض الكفار (إسبانيا) على أمل العبور إلى الجزائر، وقدموا إلى مرسيليا، إلا أنه تم القبض عليهم كذلك وألقى بهم في السجن على أساس بيعهم كأسرى إلى أحد الكفار. ..**"[55]

إن نص الوثيقة يعرض لنا بوضوح مصير الموريسكيين الذين قصدوا مرسيليا، ويكشف لنا أيضا خليفة الصراع الذي كان قائما بين إيالة الجزائر وفرنسا قبل معاهدة 21 مارس 1619، [56] خلال هذه

الفترة قامت السفن التابعة **لحسن باشا ومراد رايس** بحملات عديدة ضد السواحل الجنوبية لفرنسا، في الوقت الذي قامت فيه السفن الإسبانية والجنوية تحت العلم الفرنسي بالاستيلاء على السفن الإسلامية في عرض البحر المتوسط، وهذا ما دفع الدولة العثمانية إلى إرسال العديد من الأوامر إلى إيالة الجزائر لملاحقة هذه السفن والقبض عليها[57].

ولعل هذه الوضعية هي التي كانت في البند الأول من معاهدة 21 مارس 1619م، بين فرنسا والجزائر، والذي يركز على أن : "**الأسرى المسترقين من المسلمين الذين يفرون من أراضي الأعداء، ويلجؤون إلى فرنسا، تعطى لهم حرية العبور إلى الجزائر. .. وإعطاء الأوامر إلى حكام المدن ومناطق حدود المملكة الفرنسية بعدم إرجاع وبيع هؤلاء المسلمين إلى أعدائهم**[58].

واستقر الأندلسيون في المرحلة الثانية من الهجرة، في مدن جزائرية كثيرة مثل عنابة وبجاية ودلس وتنس، ووجد هؤلاء المهاجرون في الجزائر أرضا تشبه أرضهم، وأهلا كأهلهم، فاستوطنوا وساهموا في الحياة الاجتماعية بإدخال عنصرين رئيسيين : الأول تمثل في الكفاح ضد الأسبان في البر والثغور، دفاعا عن النفس ومحاولة لاسترجاع ممتلكاتهم، والثاني نشر أنماط الحضارة الأندلسية في الجزائر[59]. ويرجع الفضل في هذه الهجرات إلى توسيع النسيج الحضري لمدينة الجزائر، قاعدة الحكم العثماني، حيث

أصبح لها مركزان رئيسيان يسكنهما الأندلسيون في دلس شرقا وشرشال غربا[60]. ولم يتمركز الموريسكيون في مدينة الجزائر فحسب، فقد تمكن رضوان باشا (1607-1610م)، من إرسال مجموعة من لاجئي الأندلس داخل البلاد للالتحاق بالمجموعات السابقة، والتي كانت تعيش بالبليدة والمدية وملیانة وبجاية وقسنطينة[61]، واستطاعت الجالية الأندلسية من تأسيس مراكز ساحلية وتعزيز خطوطها الدفاعية، بمزغران وشرشال، كما ساهم موريسكيو غرناطة ومرسية في بناء وتعمير المرسى الكبير، وجعلوا منه قاعدة بحرية[62]، واستوطنت عائلات موريسكية أخرى المدن المجاورة لمدينة الجزائر، مثل البليدة والمدية، وانتشروا في ربوع أحياء مدينة الجزائر وخاصة باب الواد وبولوغين والحامة والقبة وبوزريعة وتقارين وتليملي. ومن الحقائق الثابتة أن هذه المناطق، عرفت خلال هذه الفترة بحدائقها الخضراء ومنازلها البيضاء [63]، بالإضافة إلى مساهمة الأندلسيين في توسيع عمران مدينتي هنين ومستغانم[64]. ونظرا للضغط السكاني المتزايد على مدينة الجزائر العثمانية، فكر حكامها في تخصيص أماكن أخرى لإقامة المهاجرين الأندلسيين.

وكان **لخير الدين** السبق في ذلك، إذ يرجع له الفضل في تأسيس مدينة البليدة عاصمة المتيجة، حيث اقتطع أجزاء من سهولها لأفراد الجالية الأندلسية بغرض الاستيطان، وشيد بها مسجدا جامعا سنة 1535م، وحماما وفرنا، وسارع الناس في بناء المنازل على

الطراز الأندلسي[65]" فأضحت البليدة مدينة الأزهار والثمار وعرفت باسم "الوريدة".

ويرجع الفضل إلى **عروج** الذي ساعد الأندلسيين في الانتقال إلى منطقة البليدة، وأصبح **سيدي أحمد الكبير** الوالي الصالح الرمز المقدس للأندلسيين، حيث تحمل مسؤولية الدفاع عنهم، وتمكن من تشييد عدة قرى للاجئين منهم، وهذا ما بين مدينتي الجزائر والبليدة، خلال سنوات 1502م و1523م. وبصورة عامة تمكن **خير الدين** من حمل المئات من الأندلسيين، ووفر لهم الاستقرار في مناطق ضفاف الواد الكبير المعروف بواد الرمان قرب قبائل شنوة[66]. وفي سنة 1533م، استنجد سكان منطقة تيبازة بسيدي **أحمد الكبير**، الذي وضع حدا لغارات الجبليين[67]، بالإضافة إلى نزوح بعض العائلات الأندلسية إلى منطقة لوريت (Lorit)، والتي تبعد عن تلمسان بحوالي 7 كيلومترات، وبعد مضي عقد من الزمن، دخل هؤلاء مدينة تلمسان واتخذوها مقرا لهم.[68] ويلاحظ خلال هذه المرحلة أن المناطق الساحلية الغربية من الجزائر، كانت أكثر حظا في استيعاب هؤلاء المهاجرون عن السواحل الشرقية، وهذا يفسر بالقرب الجغرافي بين إسبانيا من جهة وللعلاقات الأندلسية-الزيانية من جهة أخرى. وأثناء انتقال المهاجرين الأندلسيين من وهران إلى المناطق المجاورة تعرض لهم الأعراب في الطريق ونهبوا أموالهم، حيث تذكر بعض المصادر أن بعض القبائل الوهرانية، كانت تقوم بأعمال وحشية ضد المهاجرين الأندلسيين، فتفقر البطون آملة أن تجد فيها

المجوهرات وتعمل على تجريدهم من أملاكهم، وقد سار على هذا النهج المؤرخ **أبو راس الناصري** في كتابه عجائب الأبصار في حديثه عن المهاجرين الأندلسيين بعد سقوط غرناطة، عما ارتكبته قبيلة هبرة بميناء آرزيو من تعذيب وتقتيل مما دفع بالشيخ **محمد أقدار التوجيبي** الذي استنهض الشيخ **أحميدة العبد**، وحثه على أن يغزو بعشائر سويد على قبيلة هبرة (بين المحمدية وسيق)، حتى أن هبرة بطشت بالأندلسيين : "... يبفرون، بطونهم لما يظنون من ابتلاع نحو جواهر"[69]، وذكر **المقري** : "... فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله. .."[70]

لم يشر **المقري** إلى عملية بقر البطون والتقتيل، لأن أية محاولة لتفسير هذه الرواية على أسس تاريخية لا قيمة لها ولا معنى، لأن كلمة بقر البطون لا تميت بصلة مع الأهالي فهذا نوع من التزييف والمبالغة، وذلك لما كان يتمتع به الأندلسيون من رفاهية ورغد في الجزائر قبل المرحلة السابقة لسقوط غرناطة. إن القبائل الجزائرية في هذه الفترة كانت متحضرة وغير مستعدة للهجوم والبغي على إخوانهم في الدين، وفي هذا الصدد فإن أغلبية الرواة الغربيين و(المغاربيين) في في تلك الفترة، مجمعون على أن بعض المدن والموانئ (المغاربية)، قد أساءت استقبال الموريسكيين في وهران وتلمسان، حيث قام البدو بسلبهم وقتلهم. وقد كتب المؤرخ الإنجليزي **شارل لي** (Lea) حول هذا الموضوع : "**لم يكن مسلمو تطوان متسامحين. .. وقد أضيفت إلى الموريسكيين مأساة جديدة، وهذا إلى درجة أن جميعهم**

لم يكونوا فرحين ليعلموا أن هناك موريسكيين مسيحيين ثابتين في دينهم قد رجموا أو قتلوا، وهذا نتيجة رفضهم دخول المساجد، وفي البلاد المغاربية، وكقاعدة عامة، كانت آلام المهجرين شنيعة جدا، وعندما نزلوا بوهران سعوا لتبني خطة إنشاء دولة موريسكية. .. ولا شك أن الموريسكيين لم يكونوا يدركون الوضعية العامة، إلى أن عايشوا بأنفسهم كره العرب البدو لهم، وأنهم لا يرغبون الآن إلا في الرجوع إلى إسبانيا ليموتوا مسيحيين. .."[71].

ومهما يكن من انتقاد لهذه الروايات فإن بعض الباحثين المعاصرين تبنوا مثل هذه المواقف بهذه الفترة الحرجة، محللين إياها بشكل غير متوازن وهو الأمر الذي جعلهم يرتكزون على الطابع غير الإنساني والسلبي لمواقف بعض الطبقات الاجتماعية للأهالي، هذه الوضعية الناجمة عن الفوضى الإدارية والسياسية للمغرب، كونها ظاهرة تاريخية قديمة، والمتمثلة في الصراع القبلي ونهب الأملاك، لم يستطع النظام العسكري العثماني القضاء عليها.

وإذا كان بدو وهران وتلمسان قد نهبوا أو سرقوا أملاك وثروات الموريسكيين الذين حلوا بالساحل المغاربي، دون أن يقع القصاص عليهم، فهذا غير معقول لأن الأهالي لم يكونوا على علم بمأساة الموريسكيين السياسية والدينية وعلى الخصوص حول نتائج طردهم من الأندلس، بل تم نهب هؤلاء الموريسكيين بسبب مظاهر الثراء البادية عليهم، ومن هذا المنطلق تطرح التساؤلات التالية :

- هل كانت السلطات تعلم بما ارتكبه البدو في حق الموريسكيين؟
- وهل كان هؤلاء واعون بعملية النهب والسلب التي مارسوها تجاه هؤلاء الموريسكيين الذين التجئوا إلى الساحل المغاربي كالتماس الأمن والحماية ؟

إن أعداد الموريسكيين الوافدين على إيالة الجزائر خلال هذه المرحلة، كان أقل إذا ما قورن بمثيله في كل من المغرب وتونس، ونرجحه في رأينا إلى تعرض هؤلاء المهاجرين البائسين للاعتداء والنهب والسلب من طرف القبائل المحلية من جهة، وإلى طبيعة الحكم العثماني بالجزائر على أساس كونها إيالة دار الجهاد ومحور صراع دائم مع القوى المسيحية في المنطقة من جهة أخرى.

ومما يلاحظ أن الأندلسيين خلال هذه الفترة كانوا يتعرضون إلى مخاطر كثيرة في طريقهم إلى الجزائر، ففضلا عن الأضرار التي لحقت بهم من جراء غارات وهجومات الأعراب وانتشار الأوبئة، نجدهم يتلقون أبشع أنواع التعسف والظلم على أيدي ربابنة السفن الإسبانية، وقد ينتهي بهم الأمر إلى الغرق في البحر.

الهوامش :

(1)- شكل قسم من المهاجرين الأندلسيين المطرودين من إسبانيا، جمهورية عند مصب نهر أبي رقراق، وكانوا حركة الجهاد البحري، وفي سنة 1627 استقلوا عن الحكم السعدي بفاس وكونوا جمهوريات صغيرة في كل من القصبة والرباط وسلا. أنظر : محمد، رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و17م، الدار البيضاء : إفريقيا الشرق، 1991، ص. 112-117.

(2) Moulay, Belhamissi, Marine et marins d'Alger à l'époque ottomane (1518-1830), Thèse de Doctorat d'état, Université de Bordeaux III, Mars, 1986, T2, P.270.

(3)- وولف، جون (ب)، الجزائر وأوروبا 1500-1830م، ترجمة وتعليق : أبو القاسم سعد الله، الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986م.ص 183.

(4) -De Tassy,Laugier,histoire du royaume d'Alger,Paris,éd,loysel,1992,p.69.

(5)- هلايلي، حنيفي، النظام الحربي للجزائر منذ مطلع القرن السابع عشر حتى سنة 1830، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة سيدي بلعباس، 2004، ص 155-156.

(6) حول نشاط رياس البحر وأهميتهم في الجزائر خلال الفترة العثمانية أنظر :
M. Belhamissi, op.cit, T1, PP.195-216.

(7) جون (ب) وولف، المرجع السابق، ص 200.

(8) Père, DAN, Histoires de Barbarie et de ses corsaires des royaumes des villes d'Alger, de Tunis, de Salé et de Tripoli, 2ème édition, Paris, P.Rocdet, 1637, PP.313-314.
(9) Mouloud,Gaïd, l'Algérie sous les Turcs,Alger éd Mimouni, 2ed, Alger, 1991, PP.167-170.

(10) جون (ب) وولف، المرجع السابق، ص 202.

(11) Devoulx (Albert), Le Raïs Hamidou, A.Jourdan, Alger, 1859.

(12) الشريف الزهار ؛ مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، (تحقيق : أحمد توفيق المدني)، ط2، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980م.ص 103-106.

(13) كان يترأسه أميرال الذي يعد من أقدم العناصر في طائفة الرياس.

(14) الشريف الزهار، المصدر السابق، ص 117.

(15) Belhamissi, op.cit, T1, P.163.

(16) أبو الحسن علي التمقروتي عالم مغربي، عمل سفيرا في بلاط أحمد المنصور الذهبي (1579-1603م)، وله رحلة بعنوان النفحة المسكية في السفارة التركية ويتحدث فيها عن لإقامته بالجزائر، وتوفي في سنة 1003هـ/1594-1595م.

(17) مولاي، بلحميسي، الجزائر من خلال الرحالة المغاربة في العهد العثماني، الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب، 1982، ص60-61.

(18) Devoulx.(A), « La marine de la régence d'Alger », in, R.A (N°13) 1869, P.388.

(19) Venture de paradis, Tunis et Alger au XVIIIe siècle, présenté par Joseph.Cuoq, Paris, Sindbad, 1983.p.150.

(20) ناصر الدين، سعيدوني، "الأندلسيون (الموريسكيون) بمقاطعة الجزائر (دار السلطان) أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر"، حوليات جامعة الجزائر، العدد 7، الجزائر 1993، ص107-129.

(21) إن التحرك العثماني في شمال إفريقيا ونجاح خير الدين بربروسة في ربط إيالة الجزائر بالدولة العثمانية، ونجاحه في إسقاط قلعة البنيون الإسبانية سنة (1529)، ثم فتحه لتونس سنة 1534 والانتصارات المتلاحقة، جعلت الملك الإسباني شارل الخامس يتحرك إيمانا منه بأن العثمانيين يمثلون تهديدا مباشرا لأمن المسيحية ولممالكه بأوروبا.

(22) محمد عبد الله، عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ط4، القاهرة : مكتبة الخانجي 1987، ص240-245.

(23) عبد الجليل، التميمي، "رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانون سنة 1541"، المجلة التاريخية المغربية، العدد3، تونس 1975، ص37-47.

(24) فارس، محمد خير، تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، دمشق : المطبعة الجديدة، 1981-1982م، ص 13.

(25) المصدر نفسه، ص 16.

(26) عبد الجليل، التميمي، رسالة من مسلمي. ... المقال السالف الذكر، ص. 100-107.

(27) حول تأسيس إيالة الجزائر، راجع :

Grammont (H.D de), Histoire d'Alger sous la domination turque 1515-1830, Paris, 1887, pp. 20-29.

- شارل أندري، جوليان، المصدر السابق، ج2، ص.321-350.

(28) أجقو، علي، "الدولة الجزائرية الأولى (1514-1830م) دراسة مؤسساتية"، **مجلة العلوم الاجتماعية**، العدد 2، جامعة باتنة، ديسمبر 1994م، ص 137-154.

(29) جون (ب) وولف، المصدر السابق، ص 39.

(30)- عبد الجليل، التميمي، "الدولة العثمانية قضية الموريسكيين"، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 23-24، تونس، نوفمبر 1981، ص.8.

(31) ولد الحسن بن محمد الوزان في غرناطة ما بين عامي 1495-1500م، توفي سنة 1537، ووقع أسيرا في يد القراصنة المسيحيين، وقدموه هدية إلى البابا ليون العاشر، الذي قام بتعميده، وأطلق عليه اسم جان ليون الإفريقي. اشتهر بكتابه : وصف إفريقيا. للمزيد راجع : الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط1، الرباط 1980، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ج2، ص 34.

(32) مرمول كربخال، رحالة ومؤرخ إسباني، كان خبيرا في الشؤون الإفريقية، ووقع أسيرا في المغرب الأقصى سنة 1556م، وكتابه طبع بعد معركة ليبانت (1571م).

(33) مارمول، كاربخال، إفريقيا، ترجمة : محمد حجيو محمد زينبرو محمد الأخضر، الرباط : الجمعية المغربية للتأليف

و الترجمة والنشر، 1984، ج2، ص 362.

(34) Roland, Villot, Arzew des origines à nos jours, Oran, Edition Peritti, 3émeed,, 1961, p. 64.

(35) محمد عبد الله، عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ط4، القاهرة : مكتبة الخانجي، 1987، ص. 388.

(36) عبد الجليل، التميمي، رسالة من مسلمي. .. المقال السابق الذكر، ص. 39، وذكر غرامون عن إنقاذ 10 آلاف موريسكي، راجع : Grammont (H.D-de), Histoire d'Alger sous la domination turque 1515-1830, Paris, 1887, p.3.

(37) مجهول كتاب غزوات عروج وخير الدين (تصحيح وتعليق : نور الدين عبد القادر)، الجزائر : المطبعة الثعالبية، 1934، ص. 48 و82.

(38) مجهول، كتاب غزوات عروج وخير الدين (تصحيح وتعليق : نور الدين عبد القادر)، الجزائر : المطبعة الثعالبية، 1934، ص. 48 و82.

(39) Haedo, « Histoire des rois d'Alger », Trad et annotée par (H.D- de Grammont), A.Jourdan, Alger, 1881.., p. 62.

(40) Braudel, (Fernand), La méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, 2ème édition, Armand colin, Paris, 1966. T2, p. 288.

(41)- Guin, L. « Quelques notes sur les entreprises des espagnols pendant la première occupation d'Oran », in R.A. (N° 28), 1886, p. 313.

(42)- سعيدوني، ناصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني)، الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م.ص 132.

(43)- عبد الجليل، التميمي، رسالة من مسلمي. ... المقال السالف الذكر، ص. 100-107.

(44) علي، آجقو، المقال السالف الذكر، ص. 134-154.

(45) جون (ب) وولف، المصدر السابق، ص. 39

(46) عبد الجليل، التميمي، الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 8.

(47) MAXANGE, Desfontin, Eudj'Ali, Paris, Ed A. Pedon, 1930, p. 120.

(48) جون (ب) وولف، المصدر السابق، ص. 84-85.

(49) Chakib, Benafri, ENDULUSTE SON MUSULUMAN Kalintisi MORISKO' LARIN CEZYIR' E Cuçu un Osmanli YARDI M (1492-1614), Ankara 1989, p. 100.

(50) ناصر الدين، سعيدوني، دراسات. .. العهد العثماني، المرجع السابق، ص. 131.

(51) Haedo, Histoire, op. cit., pp. 193-194.

(52) محمد، سي يوسف، قليج علي باشا ودوره في البحرية العثمانية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر، 1988، ص. 179.

(53) محمد عبد الله، عنان، المرجع السابق، ص 388.

(54) Chakib, Benafri, op.cit.p.35.

(55) Chakib, Benafri, op.cit.p.

(56) نص اتفاق معاهدة 21 مارس 1619م على احترام الطرفين الفرنسي-الجزائري، للمعاهدات المبرمة بين الدولة العثمانية فرنسا، كما التزم الطرفان بوقف كل الأعمال العدوانية ضد بعضهما البعض، ونصت المعاهدة على إقامة سلم دائم بين البلدين.

(57) إن الأوامر السلطانية المهمة (مهمة دفتري)، والموجهة إلى بيلربايات الدولة العثمانية في القرن 16م، بينت بوضوح تقوية المقاومة ضد الأسبان، معتمدة على إيالة الجزائر والتي كانت تعتبرها محورا إستراتيجيا في هذه المقاومة.

(58) جمال، قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا (1619-1830م)، الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب، 1987م، ص266.

(59)- سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، بيروت : دار الغرب الإسلامي، 1998، ج1، ص 141.

(60)- ناصر الدين، سعيدوني : "الأندلسيون(الموريسكيون) بمقاطعة دار السلطان أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر"، حوليات جامعة الجزائر، العدد 7، 1993، ص 110.

(61) Gaïd, L'Algérie sous les turques, Alger, ed Mimouni, 2émeed, S.D, p.120.

(62) -Alexander (P), Djaglov, « Mers El kebir », in, R.A, (N°84), 1940, pp. 157-185.

(63) -M. Gaïd, op. cit., pp. 103-104.

(64) -Moulay, Belhamissi, Histoire de la marine algérienne (1516-1830), Alger, ENAL, 2émeed, 1986, p. 53.

(65) -Monlai, Jean,les états Barbaresques, que sais-je, Paris,PUF,1964, p. 72.

(66) -Kamel, Filali, Sainteté maraboutique et mystique, Contribution à l'étude du mouvement maraboutique en Algérie sous la domination ottomane XVIc-XVII siècles, thèse inédite, Strasbourg, 1994, p. 134.

(67)- Trumelet, C, Blida, récits selon la légende, la tradition de l'Histoire, Alger, 1887, p. 577.

(68) -Ravillard,Martine,Bibliographie commenté des Morisques ,documents imprimés de leur origine à 1982,Thèse inédite,Paris,1980, T2, p. 148.

(69)- ابن سحنون، الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني (تحقيق وتقديم) : المهدي البوعبدلي)، قسنطينة، منشورات التعليم الأصلي، سلسلة التراث 1973، ص. 27-28.

(70)- المقري، شهاب الدين أحمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، (نشر وتحقيق : إحسان عباس)، بيروت، دار صادر، 1988، جـ. 4، ص. 528.

(71)- شارل، لي، العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة، (تعريب : حسن الكرمي)، بيروت : منشورات دار لبنان للطباعة والنشر 1988، ص. 212.